## عظماء على فراش الموت*:

**- يموت راعي الظآن في رعية  ميتة (جالينوس) في طبّــه[1]-**

يلقـــى المرء منيّته على ما عاش عليه، وعندما يقف في آخر محطة من محطـــات حياته.. تجري على لسانه عبارات لا يمكن أن يعتريها الكذب، إذ غـــدا الأمـــر واضحاً جلياً أمام ناظريه، وبما أن الله تعالى يقول: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُـــوا مَـــعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: من الآية١١٩].. فلنعش معهم هنيهات نأخذ مـــنهم العظات والعِبر كما قال سبحانه ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلأَرْضِ فَٱنْظُرُواْ[2]﴾ [النمل/٦٩]:

بعدهـــا../ إلـــيك (نماذج) لخاتمة رجال (صدقوا مع الله) فصدق الله معهـــم- فـــالأشـــياء تتمـــيّز بضدها، ولولا الليل.. ما عرف النهار، ولولا الباطل.. ما عُرف فضل الحق- :

لمـــا احتضر[3] أبو بكر – رضي الله عنه – تمثلت (عائشة) رضي الله عنها بهذا البيت:

**لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى  إذا حشرجت[4] يوماً، وضاق بها الصدر**

---

* .. وانظر كتاب (هؤلاء ماتوا على طاعة) لـــ / حسن الدراوي.

(١) المتنبي.

(٢) يعرف (التاريخ) أن : ظاهره قصصٌ وأخبار، وباطنه نظرٌ واعتبار.

قـــال ابـــن خلـــدون " فإن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يُعدّ في علومها وخليق".- فـــ:

**من لم يع التاريخ في صـــــدره  لم يدر حلو العيش من مرّه**
**ومن وعى أخبار من قد مضى  أضاف أعماراً إلى عمـــرهِ-**

(٣) الزهد/ ص ١٦٣-.

(٤) يقصد – الشاعر – بـــ (الروح).

فقـــال أبو بكر – رضي الله عنه-: ليس كذلك يا بُنيّة ولكن قولي، ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق، ١٩]. ثم قال : انظروا ثوبيّ هذين فاغسلوهما ثم كفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

والخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يردد أُمنيه عظيمة: (اللهم ارزقني شهادةً في سبيلك في بلد حبيبك) فيستغرب منه أصحابه ذلك ؛ إذ في تلـــك الأثناء انقطع الجهاد في داخل المدينة وتحول إلى خارجها، فكيف ستكون له شهادة في سبيل الله داخل مدينة رسول الله ﷺ.

وقـــد حقَّق الله له هذه الأمنية التي طالما كان يفكر في صناعتها، فقد جاء غلام مجوسي وهو قائم يصلي بالناس صلاة الفجر في محراب رسول الله ﷺ فطعـــنه ونال بذلك الشهادة في سبيل الله في بلد حبيب الله في محراب[1] رسول الله ﷺ.

وهذه نهاية أخرى لا تقل عن سابقتها، وهي شهادة – إبن (أروى)- الخلـــيفة الراشد الثالث: (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، وقد رأى رسول الله ﷺ في مـــنامه قبل وفاته بليلة، فسأله سؤال لهفة وتعطُّف وحنان قائلاً له: يا عثمان حصـــروك ؟ فقـــال: نعم، قال عطّشوك؟ فقال: نعم، فأدلى إليه دلواً فيه ماء فشـــرب حـــتى روي، فقـــال له النبي ﷺ: إن شئت.. نُصرت عليهم، وإن شـــئت.. أفطـــرت عندنا، فاختار رضي الله عنه الإفطار عند رسول الله ﷺ، فأصبح صائماً عند الغروب قبل الإفطار وقع شهيداً في سبيل الله وهو محاصر، وكان

(٢) انظر كتاب « شهيد المحراب عمر بن الخطاب» للمرشد ( عمر التلمساني) رحمه الله .

يتلو كتاب الله تعالى، وسقطت قطرات من دمه الطاهر على المصحف الذي كان بين يديه.

فـــنال بذلك خاتمة يغبِّطها عليها كل مؤمن، إذ مات شهيداً في سبيل الله.. تالياً لكتاب الله صائماً مدعواً للإفطار عند رسول الله ﷺ.

ولمـــا حضـــرت (معاذاً) رضي الله عنه الوفاة.. قال: اللهم إني كنت أخـــافك، وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار.

ولمـــا حضـــرت (ســـلمان) رضي الله عنه الوفاة.. بكى، فقيل له: مـــا يبكـــيك ؟ قـــال: ما أبكي جزعاً على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكـــون بلغـــة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب. فلما مات.. جمع كل ما تركه فبلغت قيمته بضعة عشر درهماً.

ولمـــا حضـــرت الوفاة (بلالاً) رضي الله عنه مؤذن رسول الله ﷺ.. قالت امرأته: واحزناه، فقال بلال رضي الله عنه: واطرباه، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

و..لما حضرت (معاوية بن أبي سفيان) رضي الله عنهما الوفاة.. قال: أقعدوني، فأُقعد، فجعل يُسبّح الله تعالى ويذكره، ثم بكى وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ! ألا كان[1] وغصن الشباب نضر وريَّان، وبكى حـــتى عـــلا بكاؤه وقال: (يا رب، أرحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة، وأغفر الزلة، وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولم يثق بأحد سواك).

**– ما أقبح التفريط في زمن الصبا  فكيف به والشيب في الرأس نازل–**

---

(١) .. يعني: ألا كان هذا التذكير في الشباب وريّانه!

ولما بكت بنات التابعي: (سعيد بن المسيب) رحمه الله عندما أحتضر، فقال: لا تبكوا!، والله ما فاتتني تكبيرة الإحرام منذُ أربعين سنة- أي يبشرهم عن نفسه-

وقالت (فاطمة بنت عبد الملك بن مروان) - زوجة عمر بن عبد العزيز-: كنت أسمع عمر في موته الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه.. خرجت من عنده، فجلستُ في بيت آخر بيني وبينه باب، فسمعته يقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] ثم هدأ فجعلتُ لا أسمع حركته ولا كلامه[1].

وقيل له: لما حضرته الوفاة: أعهد يا أمير المؤمنين، قال: أُحذركم مثل مصرعي هذا، فإنه لا بدّ لكم منه، وبكى، فقيل له: وما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر، فقد أحيا الله بك سنناً، وأظهر بكم عدلاً، ثم بكى وقال: أليس أوُقف لأُسأل عن هذا.

وهذا (عبد الله بن المبارك) قد فتح عينيه عند وفاته وضحك، ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١].

- .. وفي (الحديث) في هذا، قوله ﷺ :

{إن كان صالحاً ليرى ملائكة الرحمة مد بصره، وإن كان عاصياً ليرى ملائكة العذاب مدّ بصره ..}-

ولما حضرته الوفاة.. قال لمولاه: اجعل رأسي على التراب، فبكى مولاه، فقال له عبد الله: ما يبكيك ؟ قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم

---

(١) (الثبات عند الممات) ص٩٠.

وأنت تموت فقيراً، فقال: لقد دعوت الله أن يحييني حياة الأغنياء ويميتني ميتة الفقراء.

- .. أخذاً بقول الأول :

**كـــل إنســـان عـــند ميتـــته إنمـــا حظـــه مـــن مالـــه الكفن**

وقال الآخر :

**يكفيك من جمع الدنيا وبهجتها .. هل راح منها بغير الطين والكفن؟!-**

و.. بكى (محمد بن المنكدر) عند وفاته، فقيل له : ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته، ولكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم.

وقـــيل لأحـــد الزهـــاد: إن فلاناً -من أقاربه- توفى وترك لك كذا وكذا، فقال قل: (إنما بقيت بعده بكذا.. وكذا).

فهـــذه بعـــض قبسات مما أُثر عن الصالحين، - .. ممن علَّموا بحسن سيرتهم بالتاريخ والأُمّة- عند الاحتضار..

... وكـــم من الأتقياء والعبّاد ماتوا وهم يتلون كتاب الله، وكم من المؤمـــنين ماتوا وهم صائمون، ولا نريد سرد الأمثلة، فكم وكم من رجال ونساء صالحين ماتوا وهم ساجدون.

فانظر يا أخي القارئ..

هـــل كانـــت هذه (النهايات) السعيدة حظٌ فقط، أو هي كراماتٍ فحسب ؟!

لا أبـــداً، بـــل -.. بعد فضل الله- ثمرةٌ لجهاد النفس، وعبادة رب الـــناس، وإخلاصاً لله رب العالمين و(على تخوّفٍ منه) تبارك وتعالى،- فكان أن التقى الحسنيين: حُسن الفعل، وفضل الكرامة-

لكن لا يأس ولا قنوط من رحمة..مَن ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ [1]﴾ [ الأنعـــام: ١٢] ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُـــلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ [غافر: ٧] فلا يخاب مـــن يقف في بابه راغباً توبته ومرضاته ، فها هو: (الحجاج) -وقد أسرف على نفسه..!- يقول عند موته:

(الـــلهم أغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تغفر لي[2])، فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطها عليها.

وقال أبو جعفر المنصور – لما احتضر – لوزيره (الربيع): يا ربيع هذا السلطان.. لا سلطان من يموت [3].

ولما حضرت الخليفة العباسي (المأمون) الوفاة.. أمر بحل دابته، ففُرش له، فأضطجع عليه، ووضع الرماد على رأسه، وجعل يقول :

(يا من لا يزول ملكه، أرحم من زال ملكه) [4]

---

(١) جـــاء في تفسير السعدي – ص ٢٥١-: أي كتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه ..وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة.

(٢) .. أي/ يا فعال لما تريد، ويا من لا يضره إساءة المسيء، ولا ينفعه إحسان المحسن – انظر ما تقدم هامش (١) ص١٣٥- بفضلك.. أسألك ذلك، وهذا إستئناساً بمعنى قول الشاعر :

**سألت الله بجمعني بـــ (سلمى)  أليس الله يفعل ما يشاء!**

بلى، سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي ٱلأَرْضِ ﴾[فاطر/٤٤].

(٣) العاقبة/ ١٢٨.

(٤) المصدر السابق/ ١٣٠-

حـــتى قال – أخاه – المعتصم عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصير.. ما فعلت.

هكذا.. يبقى سير أولئك، نتوارث نهجهم، وذكراهم، وكما قيل:

**المرء بعد الموت أحدوثةً فكن حديثاً حسنا لمن وعى**

وذاك داعـــية أن الناس في هذه الدنيا- وجرجرة خيالهم في ذكريات آثلـــة عودها- قد يعمهون في (نشوتها)!، مع بعض الإشارات والإلماحات، فنســـأل الله حين لقائه أن يخفف علينا سكراته.. بعد عمر طيباً مباركاً[1] لا طويلاً[2] المفضي إلى (أرذله) – وقد: استعاذ منه صلى الله عليه وسلم بقوله: {أن أرد إلى أرذل العمر}، قال (د. حسن القرعاوي ):

**المرء ليس بأعوام يعيش بها .. لكنه عمر من ضحّى ومن بذلا**[3]

عندها (خذ) حسن سيرك.. من فم الأعداء[4] -أيضاً-:

وحســـبك -بعدهـــا- مآثرٌ شاهداتٌ على فضلك، مقراتٌ بتقواك -إن شـــاء الله- وتُقـــدّم لـــ (ألحسن) الذي من قبل قدَّمتَ ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْـــيَعْمَلِ ٱلْعَـــامِلُونَ﴾ [الصـــافات/٦١]، والله يجازي بالقليل كثيراً، ويعفو عن السيئات وهو الغفور الرحيم.

---

(١) العمـــر المـــبارك*، هـــو ذاك الـــذي دعى به صلى الله عليه وسلم، في حين استعاذ – كما تقدم ص١١١- طول العمر.. أو أرذله!

* أي : الخير الثابت الذي لا ينقطع، – أما البركة فهي : الزيادة والنماء-

(٢) – كما قال ابن سينا في دعائه: اللهم إرزقني عمراً عريضاً – أي ذاك المنتج المبارك-، لا الطويل على غير طائل.

(٣) .. للمزيد طالع كتاب "علو الهمة" لـــ محمد أحمد إسماعيل المقدم-

(٤) .. وأنظر ما تقدم – في هامش (١) ص٥٢-

قال الخليل بن أحمد :

**وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون.. كصالح الأعمال**

وقد صدق رحمه الله، إذ رُوي- بعد موته — في المنام فقيل له ما فعل الله بك؟ قال ذهب علم اللغة..، وذهب علم النحو..، وكدت أهلك: لولا أني كنت أُعلّم عجائز سورة الفاتحة[1].

فـــ ( لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) كما في الحديث.

وفي السير/ أن الشاعر "جرير" رُوي في المنام — بعد موته — فـ سُئل:

ما فعل الله بك؟ فقال (غفر لي.. لأني أذّنت في الصحراء لوحدي)

— أي: لا يراني.. سوى عالم الغيب والشهادة سبحانه..! —

وكذا أجاب أبو نواس حين روي في المنام، بعد موته-:

أن الله غفر لي بوصفي [2] ( زهرة النرجس) — يقصد قوله :

**على كثب الزبرجد شاهداتٌ بـــأن الله ليس لـــه شريـــك –**

.. ثم خـــذ هذه البشرى من (الرحمة المجتباه) صلى الله عليه وسلم: { ما من أمرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانـــت كفـــارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله} -فـــ/

**لا تحقـــــرن صغـــيرة إن الجبـــال من الحصـــى –**

---

(١) و أجلّ معنى لهذا، حديث: {خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه }- رواه البخاري.

(٢) والقصـــص في هـــذا كثيرة، لأن الله فضله واسع، ويعطي على القليل الـــ (كثير)- انظر ثنايا ما تقدم ص٦٦-

.. ثم عليه – تخليصاً لذّمته – أن يكتب وصيةً يذكر فيها ما له وما عليه، كما يجب على ورثته بإنفاذها كأداء ديونه وما عليه مت المتعلقات وغيرها بعد موته، قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة/ ١٨٠] أي أسبابه- كالمرض المشرف على الهلاك- والخير: المال الكثير عرفاً[١]، وكذا قوله تعالى ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المائدة: ١٠٦] أي : حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه[٢]، كما ورد عنه ﷺ:

{ما حق امرئٍ مسلم يبيت ليلتين، وله شيء يوصي فيه، إلا ووصية مكتوبة عنده} [٣].

.. بعدها.. ثم ليُذكّر نفسه أن يدع ورائه أحد الثلاثة الباقية- بعد موته –: {صدقة جارية أو علم ينتفع به أولد صالح يدعو له[٤]} كما في الحديث، وحبذا كلها، وقد نظمها الإمام (السيوطي) –رحمه الله–:

**إذا مات ابن آدم ليس يجري عليه من فعالٍ غير عشري**
**علوم بثها ودُعاء نجلٍ وغرسُ النخل والصدقات تجري**
**وراثة مصحف ورباط ثغر وحفر البئر أو إجراء نهر**
**وبيت للغريب [٥] بناه يأوي إليه، أو بناءُ (محل ذكرٍ)[٦]**
**وتعليم لقرآن كريم فخذها جملة عُدَّت بـ (عشر)**

---

(١) تفسير السعدي – ص٨٥–

(٢) تفسير السعدي – ص٢٤٦–

(٣) أخرجه البخاري ٣/١٠٠٥ .

(٤) رواه مسلم ١٦٣١، وفي رواية لابن ماجة قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : ( إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، وولدا صالحاً تركه، ومصحفاً ورثه أو مسجد بناه وبيتاً لابن السبيل بناه).

(٦) – وهو/ الـ (وقف) ، أي : تحبيس أصل، وتسبيل نفعه –

(٥) .. يقصد (مسجد).

.. وقـــد روى البخاري ومسلم حديث : { يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثـــنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وما له وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله}.

## تذكـــرا دائـــماً

- أن لحظة الموت يصدّق فيها كل طاغي[1] أو ظالم لنفسه.
- لا قنوط أو يأس من رحمة الله لمن مات مخلصاً لربه.
- العمل الصالح والسيرة الحسنة، يتبعان المرء حين.. وبعد موته.
- ابقي لك عملاً بعد الموت.. يدر عليك خيراً و ذكراً حسناً.

(١) ..كذا قال فرعون – حين أدركه الغرق- : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لآ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنوۤاْ إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس/٩٠].



obeikandl.com

## أحكام هامة.. مما تتعلق (بالوفاة)

إن ملك الموت عندما يحط رحاله في منـــزل ويأخذ منه أحداً.. يجعل كـــثيراً من أهل الميت في حيرة ودهشة، لا يدرون ما يصنعون، وربما أخطئوا في حـــق الميت من حيث أرادوا الإحسان إليه، فيغدو صوابهم طيشاً، وفعلهم خطأ، ورشدهم غياً، وحبهم ضرراً.

ولكـــن الشـــرع الحنيف جاء ليوجّه ملكة المشاعر المفرطة في الغالب - إزاء هذا الحال-

وبهذا يأخذ بزمام رشدنا رسولنا ﷺ- بعد أن يشخِّص لنا وقع الفراق واللوعـــات التي تحصل هنا، و أيضاً .. بعدها- ليصف لنا الدواء، حين يعلّم ﷺ أصـــحابه الوقايـــة من الأوجاع كلها، بـــ: (الوِرد) الذي يُقال به حال الإحتضار بـــ:

{بسم الله الكبير، نعوذ بالله العظيم من شر عرق نعَّار، ومن شر حر النار}[1].

وهـــنا تنبـــيه لمـــن يكـــون عـــند (المحتضر).. إذ ينبغي له أن يلقن المحتضر الشهادة برفق ولين، وبدون أوامر – بطريق غير مباشر- كأن يجلس بجانبه و يردد فقط على مسامعه: {لا إله إلا الله محمد رسول الله}، ولا يقول لـــه: قل: لا إله إلا الله، أو أي صيغة تُفهمه أنه يلقّنه، أو غيرها مما يدل على ذلك.

---

١) أخرجه الترمذي ٤/٤٠٥ .

وبمجرد ما ينطق بها.. يتركه ولا يكرر عليه، وإذا نطق بما يخالفها[1] يستره عليه ولا ينشره، إذ الميت يرى ما لا نراه، وقد قال ﷺ: { لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة}[2].

- وكذا يُسنّ لمن عند المحتضر قراءة القرآن الكريم-

فإذا مات.. أُغمضت عيناه، ولُيّنت مفاصله، ويقول مغمضه:

(اللهم اغفر له، وارفع درجته في المهديين وأخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه).

كما جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقَّ بصره[3]، فأغمضه ثم قال: {اللهم أغفر لأبي سلمة.. الخ} الدعاء السابق[4].

ويُسنّ – عندها - أن يُعلم الناس بموته، وأن يعُجّل في غسله وتكفينه والصلاة عليه.. ومواراته إلى مثواه الأخير.

بعدها يكثر أولاده وأحبابه من الترحم عليه، ويرددوا: {إنا للهِ وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا، وأخلفنا خيراً منها}، كما صح ذلك عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) وفي ورد حديث : { إذا احتضر أحدكم يرى مُدّ عينيه ملائكة العذاب أو ملائكة الرحمة} .. يا رب ترحمنا.

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٠).

(٣) شق بصره: أي بقي مفتوحاً .

(٤) أخرجه مسلم ٢/٦٣٤٠- فالعلّة/ في عموم اللفظ، لا خصوص السبب -

{ما من عبدٍ تُصيبه مصيبة فيقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، اللهم أجرنا في مصيبتنا، وأخلفنا خيراً منها، إلا أجره الله تعالى في مصيبته، وأخلف لـــه خيراً منها} ثم.. قالت: (فلما توفي أبو سلمة.. قلت ذلك، فأخلف الله تعالى خيراً منه، وزوجني برسول الله ﷺ) رواه مسلم.

وجـــاز الـــبكاء عليه (حال) الموت وبعده[1]- لكن (بعده) خلاف الأولى-

وهـــذا البكاء فقط بذرف الدموع وحزن القلب[2]، كما قال رسول الله ﷺ: {إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنّا[3] على فراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولن نقول إلا ما يرضي ربنا: إنا لله، وإنا إليه راجعون}[4]، و عند (مســـلم): وكان يفعل ذلك ويقول : {تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب}.

**-ولو شـــئتُ أن أبكي دماً لبكيتُه عليه ولكنْ ساحةُ الصبر أوسع-**

وقـــد رأى عمر رضي الله عنه امرأة تبكي على (خالد بن الوليد) رضي الله عنهم، فقال: (على مثل أبي سليمان فـــ لتبكي .. البواكي).

---

(١) وهذا يعلمنا/ أن الإسلام دين يتعامل مع البشر وإنسانيتهم وضعفهم، أمام فاجعة الفراق (الموت)، وهول وقعها عليهم -خصوصاً ذوو المتوفّى-

أيضاً- ومن ناحية ثانية- دليلٌ على كمال هذا الدين العظيم، ومدى بلوغ تعاليمه جميع مناحي الذات البشرية.

(٢) .. لا النياحة، التي نهينا عنها. بحديث (ثلاث في أمتي من أمور الجاهلية لا يدعونها: منها النياحة على الميت)-

(٣) و.. لأنـــه: ﴿..بَشَراً رَّسُولاً﴾ كما قال الله في رسوله الأعظم فإنه يخالط مشاعره هذه العاطفة، واجتهاده في (إنسانيته) كما وضّحه في قوله عليه الصلاة السلام: {اللهم هذا قسمتي في ما أملك..}الخ

(٤) أخرجه البخاري ١/٤٣٩ .

- قال (ديك الجن) عبد السلام بن رهبان.. زافراً[1]:

**لو كـــان يدري (الميّت) ماذا بعده  بالحي منـــه..، بكـــى له في قـــبره**

**غُصـــصٌ تكاد تفيض منها نفســـه  ويـــكاد يخرج قلبه مـــن صدره-**

ويحرم الندب والنوح[2] وضرب الصدر ونحوه، كما قال ﷺ:

{ليس منّا[3]، من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية}[4].

وهناك تعليل آخر: إن (البكاء) على فقدان الشيء، هو:

إخـــراج ذاك مـــن القلب – وقد تمكن منه -، ولأن عملية الإخراج تحـــتاج إلى فعـــل قوي كيما يستطيع بتر جذره من عروق القلب..، من هنا تـــتهاوى قـــدرة المقاومـــة إلى أدنى درجاتها.. فتسكب العبرات من القلب، والدموع من العين، والأحزان من المشاعر، والآلام –بدورها- تشجّ الكيان.. حـــتى تبدأ العملية الفعلية لبتر ذلك العضو (الحبيب.. القريب.. العزيز) من قواعده بالقلب، فلا تجدك إلا خاوي القوى ضعيف القدرة.. تسلم مع وهن الذات أمام لحظة الوداع والفراق.. و .. و ..

- لكن بعدها .. هاك قول المتنبي:

**ستألف فقدان الذي أنت فاقد  كالفك فقدان الذي أنت واجد!-**

---

(١) لمـــا .. لا، .. وهـــو يـــترف مـــن أحداقنا دمعة معه.. ويبتر من قلوبنا جذوة جذوه.. وينسلّ من بين أيدينا قطعةً.. قطعة.

(٢) النَّوح: البكاء على الميت ..- حتى يُبكّي الباكي غيره -.

(٣) أي : لـــيس من المؤمنين بالله الراضين بقضائه، وليس من المسلمين المسلّمين لإرادته.. وقدره، ومثل هذا يُجلّي معنى : ( الإيمان يزيد وينقص )– والله أعلم-.

(٤) أخرجه البخاري ٤٣٦/١ .

و.. إذا بلغـــه وفاة صاحبٌ (له) أو حبيب أو أخ في الإسلام، فليقل كما جاء عنه ﷺ: {الموت فزع، فإذا بلغ أحدكم وفاة أخيه.. فليقل: إنا لله وإنـــا إلـــيه راجعون، وإنّا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم أكتبه عندك في المحسنين ، وأجعـــل كتابه في عليين، وأخلفه في أهله في الغابرين،ولا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده}[1].

وهذا ترشيد.. عن نثر الرافعي -رحمه الله -:

(لما قيل مات..، جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل! فإن الكلمة التي تأتي بالمصيبة لا تأتي بمعانٍ لغوية .. كـــغيرها من الكلام!)

ولهذا ينبه ﷺ أن: {الصبر عن المصيبة الأولى}.

ولن تجد أربط جأشاً من أبي بكر الصديق رضي الله عنه.. وهو يودّع صاحبه، وينعاه إلى الثقلين:

في كلمته المشهورة- وهو يعزي الأمّة في فقد قائدها العظيم ﷺ — :

(مـــن كان يعبد محمد فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت) ثم تلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله ٱلرُّسُـــلُ أَفإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ..﴾ [آل عمران/١٤٤]..لا، إنقلاب، ونحن ندرك.. ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون﴾.

و.. لما ماتت امرأة الفقيه (أبي ربيعة)، دفنها ونفض يديه، ثم رجع إلى داره، فحوقل[2]، واسترجع، وبكت عيناه!

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٥٩/١٢ .

(٢) أي يقـــول ( لا حول ولا قوة إلا بالله)، وهذا دعاء عظيم أُمرنا بقوله مع كل آذان- بعد/ حي على الصلاة.. حي على الفلاح - بل إن الملائكة لما أعياها حمل العرش، قال المولى سبحانه وتعالى لهم : قولوا ( لا حول ولا قوة إلا بالله).. فحملوه- والله أعلم-

ثم قال يخاطب نفسه: الآن، ماتت الدار – أيضاً – يا أبا خالد!!

و يستحبّ له أن ينشغل بذكر الله تعالى والتفكير فيما يلقاه الميت، وما يكون مصيره، وأن هذا آخر الدنيا، ومصير أهلها، وليحذر كل الحذر من الحديث بما لا فائدة فيه[1]، فإن هذا وقت فكر وذكر وعظة، تقبح فيه الغفلة واللهو، والاشتغال بالحديث الفارغ، وإذا كان الكلام بما لا فائدة فيه منهي عنه في جميع الأحوال، فإنه من الأولى بهذا الحال.

و..كان من هديه، ﷺ ، تسجية الميت إذا مات، وتغميض عينيه، وتغطية وجهه وبدنه، وكان ربما يقبّل الميت كما قبّل عثمان بن مظعون وبكى[2]، وكذلك الصديق أكب على الرسول ﷺ، فقبّله بعد موته.

---

ومعناه- كما يوضح الشيخ (د. عبدالله الركبان)-:

" المؤذن .. ينادي السامعين ليحضروا إلى الصلاة ويجيبوا ذلك النداء وهم غير قادرين على ذلك إلا إذا منحهم الله القوة والقدرة على ذلك، فالإنسان يدعو ربه أن يُعينه على إجابة تلك الدعوة فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا أستطيع القيام بذلك إلا بعون من الله".

(١) سوى الإكثار من الدعاء له، وذكر خلاله الحسنه، ومناقبه الحميدة، وقد ورد- عن أنس عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم)..

- وليس من قبيل قول ( توسيدس): الأموات هم دائماً موضع إطراء-

فيما يجب ترك القول فيه..، وذكر شيء يمسّه- من صفات سيئة خَلقية أو خُلقية-، جاء في هذا حديث ما قال في عكرمة: ( لا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي).

ومن الطريف/ ما حدث لـ (نوبل) – صاحب الجائزة المعروفة - .. وربّ ضاره نافعة: فـ .. ذات يوم من أيام ١٨٨٨م توفي ( لودفيغ نوبل) صاحب إحدى الشركات النفطية.. والتبس الأمر على بعض الصحف فنشرت خبراً عن وفاة شقيقه (الفريد نوبل) مخترع الديناميت، وكانت صيغة الأخبار كلها هجوم على الرجل مثل: مات عدو الإنسانية، نوبل يرحل بعد أن زرع الدمار.

وقرأ (الفريد نوبل) رأي الناس فيه فاتخذ قراراً بتسخير ثروته التي جناها من ابتكاراته للإنفاق على جوائز تقدم سنوياً للذين يقدمون إسهامات مميزة في خدمة السلام والعلم والآداب..)

- ولعل في بعض الحوادث مع طرآفتها ، إحسانٌ لمن مسّته مثل هذا.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة عن عائشة.

وكـــان يأمـــر بغسل الميت ثلاثاً أو خمساً، أو أكثر بحسب ما يراه الغاســـل، ويأمر بالكافور في الغسلة الأخيرة، وكان لا يغسل الشهداء قتلى المعـــركة، وذكر الإمام أحمد أنه نهى عن تغسيلهم، وكان يترع عنهم الجلود والحديد ويدفنهم في ثيابهم، ولم يصل عليهم.

وكان إذا مات المُحرِمُ، أمر أن يغسل بماء وسدر، ويكفن في ثوبيه وهما ثوبا إحرامه: إزاره ورداؤه، وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه.

وكان يأمر ولي الميت أن يُحسن كفنه، ويكفنه في البياض، وينهى عن المغـــالاة في الكفن، وكان إذا قصر الكفن عن ستر جميع البدن، غطى رأسه، وجعل على رجليه من العشب[1].

و.. يُـــندب إلى المشي إثر الجنازة، ولهذا أجرٌ عظيم، كما في الحديث { مـــن شـــهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط، وشهدها حتى تدفن فله قيراطان} قيل: وما القيراطان؟ قال:{ مثل الجبلين العظيمين[2]}- وفي رواية: {القيراط مثل جبل أحد }-

- ثم: (إن السعيد من وعِظ بغيره).

فـــالمؤمن (كيّسٌ فطن) – كما وصفه ﷺ-، وقد قال – واعظاً- في الحديث الذي ( تقدم): {الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مـــن أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني!}، كما قال تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ

---

(١) انظر زاد المعاد (١/٥٠٢-٥٠٤).

(٢) البخاري (٣/١٥٨) مسلم (٩٤٥).

ٱلۡتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ.﴾ [التكاثر/١-٢]ولا تقل: وإذا بقي من العمر بقية، فإنه.. ومن اليوم بداية باقي العمر!.

وقال الحسن البصري لرجلٍ حضر جنازة: أتراه لو رجع إلى الدنيا لعمل صالحاً، قال : نعم، قال: فإن لم يكن هو فكن أنت.

**– فـ / يا من بدنياه اشتغل وغـرّه طـول الأمـل**

**المـوت يـأتـي فجـاءةً والقبر (صندوق) العمل –**

..ولتـتذكر أن المـوت (يـتخطّاك) لغيرك، وسوف يتخطّى غيرك (إليك)، وإنك في يوم آتٍ مثله: (**على آلة حدباء محمول**) .

فنستعد له – لنرحلٍ– بإذن الله تعالى : بزاد (التقى).

عـلى أن لا تنسـدر.. انـتظارا لقدومه، فحسب!، لكن بهمة الجد والعمـل – أي : بقاعدة: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غداً!

## تذكـر دائـماً

– على من استحضر، أو حسّ بالوفاة أن يكتب (وصيته).

– جواز البكاء على الميت، وحرمة النواح.

– .. إن الصبر عند المصيبة الأولى.

– الاتعاظ .. والاستعداد للموت، وإنه إليك .. قادم!